مقدمة لابد منها

بسم الله الرحمن الرحيم والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن والاه إلى يوم الدين .....وبعد:

فالقدس من المدن الإسلامية التي حظيت باهتمام واسع من قبل المؤرخين والباحثين والكتاب، وذلك لأهميتها الدينية والتاريخية والسياسية للأمتين العربية والإسلامية، وقد تجّسد ذلك في عديد الدراسات والأبحاث والمقالات والمؤتمرات التي سلطت الضوء على جوانب مختلفة من سيرة هذه المدينة العريقة وسكانها عبر العصور والأزمان، وعليه فإن كل ما أردت إضافته في هذا الكتاب – والذي أرجو أن ينتفع به الناس– هو جمع وترتيب النصوص ذات العلاقة بمقابر بيت المقدس الإسلامية، تحت عناوين رئيسة استقيت معلوماتها من مصادر أولية ومن مراجع ومصنّفات ومقالات هامة تعنى بتاريخ وحضارة فلسطين عموماً، وبيت المقدس على وجه الخصوص، ومما خطّه لنا كتّابنا ومؤرخونا من أمثال عارف العارف، وكامل العسلي، وفهمي الانصاري، وعبد الجليل عبد المهدي، وراغب الخالدي، وحمد يوسف، ومحمد غوشة، وطاهر النمري، وعلي خلف، وعبد الهادي التازي، والكتاّني، وهايل صندوقه، وبشير بركات، وعلي السيد علي، ومحمود إبراهيم، ومصطفى الدباغ،وهنري كتن، والأب الدومسكي.... وغيرهم. وما تركه لنا العلماء الأوائل والرحالة المبدعون الذين حظيت فلسطين ودرّتها القدس باهتمامهم في العصور الوسطى، فسجّلوا لنا كل ما وقعت عليه عيونهم من آثار ومساجد وتكايا وزوايا وأسبلة وقباب ومقابر ومزروعات وحياة اجتماعية من أمثال مجير الدين الحنبلي صاحب الأنس الجليل، وعبد الغني النابلسي، وابن جبير، وابن خلدون، والبشاري المعروف بالمقدسي، والإدريسي، وابن الأثير، وابن بطوطه، والعبدري، والبلوي، وابو العباس المقري، والعياشي، وابن عثمان المكناسي، وابن الجوزي، وناصر خسرو، واللقيمي، والحموي، والدمشقي، والظاهري، وابن عبد ربه، والنيسايوري والقزويني وغيرهم.

حرص الرحالة العلماء، وخاصة المغاربة منهم، الذين نزلوا القدس كما يذكر الكتاّني "..على لقاء أهل العلم والفضل والأخذ عنهم والتماس الدعاء الصالح منهم، ولا يغفل أحد عن التنوية بسموّ أهل بيت المقدس خصوصاً

وبقية الفلسطينين والشاميين عموماً بدواً وحضراً..."[1] ويعتبر كرافشكوفسكي رحلة "ابن جبير" المشهورة في تاريخ الأدب الجغرافي العربي من الناحية الفنية ذروة ما بلغه نمط الرحلة في الأدب العربي، حيث زار "ابن جبير" القدس مرتين، وقد حال الاحتلال الفرنجي دون زيارته لها سنة 578هـ، و في سنة 611هـ رحل من سبته فوصل مكة وجاورها طويلاً، ثم زار بيت المقدس. ولما تحررت القدس على يد صلاح الدين الأيوبي أهدى له قصيدة طويلة جاء فيها:

نلتم لك بالشرق من حامر	ولتم لك بالغرب من شاكر
وحبك أنطقني بالقريض	وما ابتغي هلة الشاعر
ولا كان فيما مضى مكسبي	وليس البضاعة للتاجر
إذا الشعر صار شعار الفتى	فناهيك من لقب شاعر

وذكر "ابن جبير" أن المغاربة من أهل الأندلس وشمال إفريقيا تطوعوا في جيش "نور الدين الشهيد" وأبلوا في القتال بلاءً حسناً، وعندما مرض مرضاً شديداً نذر على نفسه أن يفدي أسرى المغاربة إن شفاه الله، وكان له ذلك وقد وفّى بنذره وأمر بفداء جميع أسرى المغاربة.[2]

وقد ترك "العبدري" وصفاً لمسجد الصخرة المشرفة، مبدياً إعجابه بقبة المسجد، ومسجّلاً ما لاحظه عليها باطناً وظاهراً. ويذكر في رحلته أنه زار الخليل وعسقلان وغزة. وأما "ابن بطوطة" فإنه جال في أنحاء فلسطين كلها، وخصّ بالذكر مدينة القدس ومسجدها، ووصف قبة الصخرة المشرفة على نحو ما صنع سابقوه، وذكر عن القدس أنها بلدة كبيرة منيفة مبنية بالصخر المنحوت.[3]

وفي رحلته "تحفة النظار في غرائب الأقطار وعجائب الأسفار" يذكر "ابن بطوطة"؛ محمد بن عبد الله الطنجي المولود في طنجة سنة 703هـ /1303م، زيارته للقدس مرتين؛ الأولى، في سنة 726هـ/1325م، والثانية، في 749هـ/1348م. تحدث في رحلته الأولى عن سور القدس، وعن بعض أعمال الأمير تنكز الناصري نائب الشام حين جلب الماء الى القدس، ووصف المسجد الأقصى وأبوابه. وعن مسجد قبة الصخرة يقول "...من أعجب المباني

(1) محمد العربي المساري، القدس مفتاح السلام: المغاربة والقدس، ص: 46-47.
(2) عبد الهادي النازي، اوقاف المغاربة في القدس، ص: 49.
(3) المصدر السابق، ص: 2.

وأتقنها وأغربها شكلاً، قد توفر حظها من المحاسن، وأخذت من كل بديعة بطرف ... يصعد إليها في درج رخام، ولها أربعة أبواب، والدائر بها مفروش بالرخام أيضا، محكم الصنعة وكذلك داخلها، وفي ظاهرها وباطنها من أنواع الزواقة ورائق الصنعة ما يعجز الواصف...". كما تحدث في زيارته الثانية الى القدس عن خطيب القدس "عز الدين بن جماعة" الذي حدثه عن وفاة عدد من علماء القدس مثل الشيخ صلاح الدين خليل بن كيلكلدي العلائي، والشيخ شرف الدين الختني شيخ الزاوية الختنية في القدس.[4]

ووصف "البلوي" المسجد الأقصى المبارك ... بأنه أعظم مساجد الدنيا، ووصف مرافقه، وذكر أن بقربه مسجد حسن للمالكية يسمى "مسجد المغاربة". وقد زار "البلوي" القدس في القرن الثامن الهجري (حوالي 738هـ)، وكتب قصيدة شعرية جاء فيها:

خليلي في ربى الخليل منى نفسي ... وفيك فؤادي أنت يا حرم القدس

أحن إلى تلقاء هذا صبابة ... والمع من هذا سنى البدر والشمس

مواطن لو أنصفتها جئت زائرا ... إليها على العينين والخد والرأس

ولو أنني أعطيت مرادي بينها ... لما رحلت من دونها أبدا عيسي

وكيف رحيلي عن معاهد لم تزل ... على الحل والترحال لي غاية الأنس[5]

يذكر "ابن خلدون "أنه لما كان قاضياً في مصر سافر في موكب السلطان الى الشام، وعندما أراد السلطان الرجوع استأذنه ابن خلدون في التقدم إلى مصر بين يدي السلطان لزيارة بيت المقدس، فأذن له بذلك وذكر ابن خلدون أن "... صلاح الدين قد استنجد بأسطول المغرب زمن السلطان يعقوب المنصور 586هـ/ 1191م، يطلب إعانته بالأساطيل لمنازلة عكا وصور وطرابلس الشام، بعد معركة حطين وفتح بيت المقدس، خصوصاً وأن أمم النصارى انقضّت من كل جهة على سواحل الشام للإجهاز على الوجود الإسلامي في الأندلس. وقد أوفد صلاح الدين على رأس هذه البعثة قائد الجيش الأمير " أبا الحرث عبد الرحمن بن منقذ الشيزري"، حيث قام السلطان بتجهيز مائه وثمانين مركباً، وقد جهزتّ هذه المراكب بالعسكر المدّرب والمتطوعين والمرشدين والمجاهدين ... وأذن

---

(4) محمد غوشة، مجلة تراث القدس (العدد الأول 2002)، ص: 8.

(5) عبد الهادي التازي، مصدر سابق، ص: 49.

صلاح الدين بعد النصر لمن أراد من المغاربة العودة الى ديارهم، ولكنه كان بحاجة إلى بعض منهم ممن كانوا يفضلون بدورهم البقاء بالشام استعداداً للطوارئ ....".[6]

وبعد ذلك زار "أبو العباس المقري" القدس مرتين، حيث أورد في كتابه "نفح الطيب" أبياتاً من الشعر ذكر فيها زيارته للمسجد الأقصى. أما "أبو سالم عبدالله العياشي" فيذكر أنه زار كغيره عدة مدن في فلسطين، ولكنه خصّ بالذكر مدينة القدس التي جاءها من الرملة، حيث غادرها صباحاً وصلىّ العصر بقبة الصخرة، وأنزل حوائجه بزاوية المغاربة، ثم انتقل إلى بيت داخل المسجد. وقد أورد وصفاً لمشاهداته في القدس وقبة الصخرة على نحو ما فعل غيره، مبدياً استغرابه من البناء، وإعجابه بـ" بالشيخ عمر العلمي"، ويصفه بأنه إمام الصوفية في تلك الديار أخذ عليه العهد، ولقنه، وشد المئزر في وسطه، ووهب له الفوطة التي تشد بها وسطه وأجازه. وقد ذكر الشيخ العلمي كذلك "ابن عثمان" الذي زار القدس في العام 1202هـ ويقول انه من ذرية "القطب عبد السلام بن مشّيش" دفين جبل العلم بالقرب من مدينة العرائش في شمال المغرب، وقد كتب رسالة خاصة بعنوان "احراز المعّلا والرقيب في حج بيت الله الحرام وزيارة القدس الشريف والخليل والتبّرك بقبر الحبيب". ويصف الأستاذ "الكتاني" تلك الرسالة بأنها مخطوطة من مخطوطات مكتبة القصر الملكي بالرباط، وقد نقل من هذا المخطوط أن المؤلف" أي ابن عثمان" قد وصف سور القدس، وأبوابها ومنها باب المغاربة وباب الأسباط وباب النبي داوود وباب الخليل.

وتعميماً للفائدة فقد ارتأيت جمع وتبويب معظم ما كتب حول المقابر (موضوع الدراسة)، ووضعها بين دفتي هذا الكتاب ذاكراً المصدر المستمد منه النص، ليس فقط من باب التسهيل على القارئ –وهذه مهمة لم أسقطها من حسابي– لكشف كل ما علق من رواياتٍ غير مثبته والتي قد تضعف بشكل أو بآخر الحقيقة التاريخية التي أنشدها، بل لأقدم ثبتاً للنصوص التي تعارف عليها، أو ذكرها، أو أجمع عليها معظم المؤرخون الثقات، والمصنفات والمراجع الموثوقة. وما سجّله الرحالة والعلماء الأفذاذ الذين نثق بنواياهم ومقاصدهم الطاهرة النقيّة، وحبّهم لهذه الديار المقدّسة التي استمدت قدسيتها من كتاب الله تعالى وسنة نبيه الكريم ﷺ. وبمعنى أدقّ فإن الأسلوب التي اتبعته هو أسلوب الرواية في " الجرح والتعديل" بهدف الانتهاء إلى أرجح النصوص أو الأقوال. ثم إن الدافع الأقوى الذي حثّني على القيام بهذه الدراسة هو حقيقة كوننا في هذه الديار المقدسة، مطالبون بالتصدي

(6) المصدر السابق، ص: 11.

لرواية الآخر في مسعاه لطمس هوية فلسطين العربية منذ كنعان ويبوس، وتدمير معالم حضارتنا العربية والإسلامية كي لا يكون متسعاً في فضاء هذه البلاد إلا لروايته الكاذبة المفبركة والتي لا تستند إلى حقائق الجغرافيا والتاريخ وعلم الآثار وعلم الإنسان، بل إلى القوة الغاشمة وخزعبلات توراتية حاقدة على الجنس البشري برمته، كتبها أولئك الذين نجوا من ذلّ السبي البابلي ومن ازدراء الحضارة الغربية لهم في أوروبا ابتداءً باسبانيا وانتهاءً بألمانيا النازية وبولندا ...وغيرها، ونسوا أو تناسوا أنهم لم ينعموا بالحرية والعدالة والمساواة إلا في ظل الحكم الإسلامي الذي يستند الى تعاليم الإسلام السمحة، تلك التعاليم التي تدعو إلى احترام أصحاب الديانات السماوية وتحفظ لهم حقوقهم الدينية والإنسانية .

ومما يؤسف له أن هؤلاء –جلادي هذا العصر– قد وصل بهم حدّ التمادي بفعل التعبئة الحاقدة التي عمدت إلى بثّها في أوساطهم الحركة الصهيونية العنصرية، إلى تدمير مقابر الشهداء الأبرار والعلماء الأجلاّء، دون وازع من ضمير، ودون مراعاة لحرمة تلك المقابر وسكانها،أو لأعراف وقوانين وتشريعات دولية اتفقت عليها شعوب الأرض، فنبشوا القبور وهدموها وعاثوا فساداً بالمقدسات الإسلامية والمسيحية، وحرموا الناس من أبسط حقوقهم في المسكن والملبس والعبادة والعمل والحركة والتنقل، وأعادوا إنتاج حكم وطباع (قراقوش)، فسبقوه وتفوقوا عليه، وأصبحت "الميكيافيلية" جزءاً أصيلاً من منهجهم الحياتي في التعاطي مع كل ما يروق لهم تحقيقه، حتى صار شعار "القوة هي الحق" المنبثق عن حضارة (الكاوبويز) في أمريكا هو المقياس، وشطبوا من قواميسهم ما يمت بأي صلة إلى "قوة الحق". وبلغ بهم الأمر مبلغاً لم يسبقهم إليه أحد حيث قرروا وبدعم أمريكي بلغ أكثر من مئتي مليون دولار تشييد بنايتين كبيرتين على أراضي مقبرة ماملا؛ الأولى، سميّت (مبنى الكرامة الانسانية)، والثانية، سيطلقون عليها (متحف التسامح) وستقوم بهذه الإجراءات منظمة (فيزنطال) الأمريكية الإسرائيلية.[7] تلك الأبنية ستقام على جماجم وعظام الموتى من الأطفال والنساء والشيوخ المسلمين الذين ذبحهم الفرنجة حين سقطت القدس بأيديهم، يوم الجمعة في الثالث والعشرين من شعبان سنة 492هـ. كما ذكر أبو الفرج بن الجوزي الذي أضاف بأن الفرنجة قتلوا نحو سبعين ألف مسلم[8] بعد أن أعطوهم الأمان حتى غاصت قوائمهم وقوائم أحصنتهم في دماء المسلمين في مذبحة مروعة.[9] كما ستقام أيضاً على رفات العلماء والفقهاء

---

(7) طاهر النمري،لققلله مأمن الله، صحيفة القدس، ص: 35.

(8) فضائل القدس، ص: 125 و126.

(9) عبد الجليل عبد المهدي، بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية، ص: 18 (ما ذكره وليم الصوري/ المؤرخ الصليبي، ومؤرخ صليبي آخر غداة المذبحة).

والمحدثين والشهداء المقاتلين من جند صلاح الدين الأيوبي، الذين هبّوا لنجدة فلسطين، وتخليص القدس من ظلم الفرنجة الأوروبيين، فزادوا أديم هذه المقبرة طهارة فوق طهارة، حتى ارتفعت رائحة مسكها لتعانق السماء.

والأمل معقود بعد هذا، أن نرفع فيما نكتب على تواضعه، وما كتب الآخرون ممن سبقونا، ومن المعاصرين من جمهور الكتاب والمثقفين، مدماكاً في جدار الحرية لفلسطين وأهلها، يضاف إلى رصيد الشهداء الأبرار الذين ضحوا بأرواحهم افتداءً لفلسطين وعزّتها وعروبتها وإسلاميتها، وعذابات المهجّرين والجرحى والأسرى والذين لا يزالون على العهد في طول الأرض العربية والإسلامية وعرضها –في زمن الربيع العربي– زمن الحرّية والانعتاق من الظلم والاستبداد، لعلّ ربيعنا الفلسطيني يأتي بعد طول انتظار.

وأخيراً، فإنه لا مناص من ذكر حقيقتين مهمتين؛ الأولى، أن من أغنى وأكمل المصادر حول مقابر بيت المقدس وخصوصاً مقبرة ماملا هو كتاب "الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل" للعلامة عبد الرحمن بن محمد بن مجير الدين، العليمي، الفخري، الحنبلي والذي ولد في بيت المقدس وكان قاضي القضاة، حيث جمع فيه خلاصة تواريخ القدس، وأضاف إليه طائفة من الحوادث، وكان قد ترجم للعديد من القضاة والأعلام والفقهاء الذين دفنوا في مقبرة "ماملا" وهو نفسه قد دفن فيها.[10] والحقيقة الثانية، أن في كل ما ذهبت إليه سابقاً لم أقدم ما هو جديد على مستوى المعلومة سوى تلك التي استقيتها من خلال المعاينة الشخصية، والزيارات الميدانية التي حرصت على القيام بها مستعينا بالكاميرا، ومسجلاً كل ما اعتقدت بأنه حديث من تعميرات، ورُقُم حجرية، ونقوش وكتابات، وآثار التخريب والتدمير المتعمد للقبور والشواهد. كما قمت بتوثيق قبور الأعيان والشهداء والمعالم التاريخية لكل مقبرة، مسجلاً كذلك ملاحظاتي حول أوضاع المدافن والأضرحة والحاجة إلى ترميم العديد منها...الخ. ثم انصرفت إلى جمع النصوص من مصادر متنوعة وقمت بنقاشها وتبويبها تحت عناوين محددة، ليسهل على القارئ والمهتم والمتتبع لشؤون المدينة المقدسة الوقوف على ما آلت إليه أمورها، بعد أن استبدّ بها المحتل، وعاث بها فساداً، وأمعن في تهويد وتغيير معالمها التاريخية والدينية والحضارية، وانتهاك حرمة مقابرها منذ نكبة العام 1948 وحتى تاريخ إصدار هذا الكتاب. وقد يكون من المفيد الإشارة إلى ضرورة التمييز بين المقابر أو كما يطلق عليه أهل المدينة (التُرَب/ جمع تربة)، وهي الأماكن الشاسعة التي خصصت لدفن الموتى

(10) فلألأي الأنصاري، القدس الإسلامية – تراجم أهل مقبرة ماملا، ص: 95.

في شطري المدينة الغربية والشرقية، وبين العديد من القبور والأضرحة والمقامات والزوايا والمزارات التي تضم رفات الأولياء والصالحين والشهداء والقادة والعلماء والشيوخ، وهي منتشرة في أرض فلسطين بشكل كبير وفي القدس داخل وخارج أسوارها التاريخية، وهذا بالطبع يقع خارج سياق دراستنا هذه.

واخيراً فإني آمل أن يشكل هذا العمل سيرة ذاتية لمقابر بيت المقدس الإسلامية؛ ماملا، وباب الرحمة، واليوسفية، وباب الساهرة (المجاهدين)، وبعض المقابر الصغيرة المتناثرة في أرجاء القدس داخل وخارج أسوراها التاريخية. وقد دعّمتها بمجموعة من الصور الفوتوغرافية التي قمت بالتقاطها أثناء زياراتي المتكررة للمقابر موضوع هذه الدراسة.

والله تعالى اسأل أن يوفقني لخدمة قضايا أمتي وفي المقدمة منها قضية فلسطين العادلة.

المؤلف

د. محمد بحيص عرامين